### معرض استعادي للتشكيلية الراحلة منحة الله حلمي:

# مناخ الثورة جعلها لصيقة بالصورة الشعبية المصرية

القاهرة ـ «القدس العربي»:

أقامت قاعة «أفق واحد» معرضا استعاديا كبيرا للفنانة الراحلة منحة الله حلمي تحت عنوان «مشوار إبداعي جرافيكي». ضم المعرض عددا كبيرا يتجاوز السبعين عملا من أعمال الراحلة منحة الله حلمي «1925 ـ 2004»، كذلك ضم المعرض عددا من الصور التذكارية ذات الصبغة العائلية والفنية.

ويقول الدكتور احمد نوار الذي أشرف على إعداد المعرض بقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة أن معرض الفنانة يكشف عن صفحات مجهولة في الحياة الفنية، رغم أن صاحبة هذا العطاء يمكن تصنيفها في طليعة الفنانين الذين جمعوا بين الإبداع بمعناه الخلاق وامتلاك أساليب وطرق التقنية من جهة أخرى سواء من حيث إسهاماتها في مجال الجرافيك الذي اكتسبت تقنياته في محترفات لندن وجهد ذاتي دؤوب، أو في مجال التصوير الذي لم يره أحد من الجمهور حتى الآن.

ويضيف نوار: إنه إذ تم تقديم إبداعات منحة الله حلمي لهو أكبر دليل على أهمية الحفاظ على ذاكرة الأمة البصرية، من خلال مبدعيها، اتساقا مع نهج نحرص عليه لعرض تجارب فنية متميزة، فقد سبق تقديم سيف وأدهم وانلي، سيد عبد الرسول، منير كنعان، مصطفى أحمد وغيرهم.

أما الفنان محسن شعلان رئيس الإدارة المركزية للمتاحف والمعارض فيرى أن المعرض يأتي كواحد من المعارض المهمة التي تستقبلها قاعة «أفق واحد» وهي قاعة يصفها بأنها شديدة الخصوصية لما خصصت له ومن أجله.. ربما بفعل الجوار والملاحقة لمتحف محمد محمود خليل وحرمه وهو المتحف شديد التفرد في مصر والشرق الأوسط.. على الإطلاق، ويضيف شعلان أنه سبق هذا المعرض عدد مهم من المعارضة الممثلة من حيث القيمة والتميز وأطلق عليها «إحياء ذكرى رواد الفن التشكيلي المصري» ولم تقتصر على الراحلين من رواد حركتنا التشكيلية العامرة.. ولكن تناولت عددا آخر من معارض من نتمنى وندعو لهم بموفور الصحة ودوام الإبداع.

ويضيف شعلان أن هذه السلسلة من المعارض المهمة كانت لأحمد صبري، وإنجي أفلاطون ونبيل درويش والأخوين سيف وأدهم وانلي ثم تلا ذلك معارض استعادية مهمة لمحمد حجي وثروت البحر وفاروق وهبة، ويرى شعلان أن منحة الله حلمي هي واحدة من أهم رموز الحركة الفنية النسائية في مصر وتعد من اعمق العلامات شديدة التأثير في أجيال تلاحقت وتعلمت على أيديها فنون الرسم والحفر.. وقد يكون ما تمتعت به من تواضع وإنكار شديد للذات وعزوف عن الأضواء هو أهم أسباب جهل الكثيرين بمكانتها وريادتها.

أما شقيقتها رعاية حلمي فتقول ان منحة لم تكن مجرد شقيقة تصغرني مباشرة فقد كنا في حالة تقارب دائم أدت بنا إلى اختيار الفنون الجميلة وسط أخوة تسعة، وترد رعاية تمسكها بدراسة الفن إلى الأسرة التي تربيا فيها حيث كانت بين الأسر التي تحترم العلم والثقافة، حيث كان الأب حريصا على تعليم جميع أولاده وتعليم البنات بنفس القدر الذي يمنحه للأبناء الذكور، وذلك في فترة كان التحاق الفتيات بالتعليم الجامعي في مصر في بداياته الأولى، وكانت الأم تعمل دائما على توفير الأجواء الملائمة لنا لنحقق ذواتنا. بعد بعثة منحة إلى إنكلترا تخصصت في فن الحفر وتميزت فيه دون أن تترك إسهامها الأول كمصورة بارعة، وقد استمرت تبدع الأعمال الفنية حتى السنوات الأخيرة من حياتها عندما توقفت عن ممارسة فن الحفر بسبب الحساسية التي اصابتها من التعامل مع الأحماض والمواد الكيميائية التي يطلبها الإبداع في هذا الفن، وإن واصلت عملها كأستاذة بكلية التربية الفنية تخرج أجيالا وراء أجيال.

أما الدكتور مصطفى الرزاز الناقد والتشكيلي والرئيس الأسبق لهيئة قصور الثقافة فيستعرض رحلة منحة الله حلمي ومشوارها الإبداعي في دراسة مطولة يشير فيها إلى جانب من سيرتها حيث ولدت بالقاهرة في 11 تموز (يوليو) 1925 ودرست الفن في المعهد الحلي للفنون الجميلة حتى عام 1949 ثم في لندن في كلية «سليد» التابعة لجامعة لندن من عام 1952 حتى 1955 ، ثم في كلية «مورلي» بلندن لمدة 6 سنوات إضافية أثناء إقامتها من عام 1973 حتى عام 1979 حين تفرغت للتعمق في دراسة فنون الحفر الجرافيكي، ثم عادت إلى القاهرة لتمارس معها تدريس فن التصوير لطالبات معهد الفنون الجميلة ببولاق ثم المعهد العالي للتربية الفنية بالزمالك ثم أستاذا بكلية التربية الفنية بجامعة حلوان، ويقول الرزاز إنه بالرغم من دراسة منحة للتصوير إلى جانب الجرافيك إلا أنه قد غلب على توجهها الفني منذ أوائل الخمسينيات.

ويرى الرزاز أن المعرض يقدم مختارات مهمة من أعمال الفنانة الراحلة منحة الله حلمي، حيث لم يتح لدارسي ومحبي الفنون رؤيتها مجمعة من قبل فضلا عن أن بعضها لم يعرض قط في قاعات العرض بمصر، والبعض الآخر لم يعرض منذ أكثر من أربعين عاما، وغابت عن ذاكرة الجيل المخضرم ولم تدخل أصلا في دائرة معارف أجيال متتابعة من الفنانين والنقاد والذواقة.

ويضيف الرزاز أن المعرض يقدم صورة بانورامية للمشوار الإبداعي للفنانة اعتبارا من تاريخ تخرجها من معهد الفنون الجميلة عام 1948 ثم نشاطها الحيوي في فترة الشباب والسفر إلى إنكلترا حيث درست فنون الرسم والتصوير والجرافيك ثلاث سنوات، ثم زيارتها الثانية إلى لندن بصحبة زوجها الدكتور عبد الغفار خلاف عندما كان مستشارا طبيا في العاصمة البريطانية.

ويقول الدكتور الرزاز عن مشروع منحة الله حلمي انها منذ عام 1956 وفي اوج ثورة يوليو اتجهت الفنانة إلى موضوعات التعبير البيئية والوطنية وموضوع الطبيعة الصامتة والموضوعات القومية. ففي الموضوعات البيئية انتجت منحة الله حلمي رسومات عديدة بعضها من الواقع الحي وبعضها تصوري خيالي والبعض الآخر توليف لما بين هذا وذاك، ففي الموضوعات البيئية القاهرية غلب عليها تصوير لأحياء الشعبية ببولاق، البيئة المحيطة بالمعهد آنذاك، حيث كانت تتوقف عند جامع «شتان باشا» وتصور الحواري في الصباح الباكر، وتسجل تراكم النوافذ على الجدران الملتصقة والأسطح المتزاوجة وتصور مولد سيدي سلامة، وحارة السيد عامر وعربات الترمس الخشبية الملونة وعروسة المولد. وكانت الجيزة بمثابة المكان المختار لدراسة المشاهد الخارجية لدى أساتذة المعهد، وقد رسمت منحة شاطئ النيل من هناك وقرية من الجيزة، ومصنع الطوب على شاطئ الجيزة وملعب الكرة والمسرح الشعبي، الذي كان يتخذ من تلك العوامات موقعا وهي التي صورها نجيب محفوظ في روايتي «ثرثرة فوق النيل» والثلاثية كملتقى للأحداث.

أما خارج القاهرة فقد رسمت الفنانة الراحلة منحة الله حلمي قرية التمساحة وشاطئ المنتزه وميامي وصيد الأسماك في السد العالي.

ملصق المعرض

عملان للفنانة

# أختٌ وأخ: قراءة في رواية ألمانية

د. اسماعيل العثماني *

■ لقد أنتجت ألمانيا منذ بضعة قرون أسماء كبرى ورصينة في حقل الدراسات المعتنية بالشرق (بما في ذلك العالم العربي والاسلامي) في اطار ما يُصطلح عليه بالاستشراق، الذي له، من الناحية الايديولوجية والثقافية، ما له وعليه ما عليه. وقد أسهم الاستشراق الموضوعي، الألماني وغيره، من خلال الدرس والبحث الجامعيين، في التقرّب من الآخر الشرقي، المختلف عن الناظر الغربي؛ وبذلك أسهم في خلق حوار بين الحضَارات الشرقية والغربية، الذي صار اليوم عنواناً مبتذلا في المنتديات والمحافل والمؤتمرات وعلى لسان رجال السياسة والاقتصاد وصفحات اليوميات والدوريات. وبعد الآداب والعلوم الانسانية، أي المجال الأكاديمي البحت، كان دور الابداع الأدبي للخوض في موضوع العلاقة بين الغرب والشرق. ولكنْ هنا أيضاً لن تستويَ على الصعيد الايديولوجي، كتاباتُ كونراد أو نايبُول مع نصوص جان جينيه أو رواية الألمانية لينتسَهْ «أخت وأخ» التي نعرضها في هذا المقام.

ازدادت أولًا لينْتسَهْ في مدينة مُونشنْغلادبَاخْ عام 1973. درست الفلسفة والموسيقى في كولونيا واستقرت لمدة عام ونصف في الهند. «أخت وأخ» هي أول رواية تكتبها لينتسَهْ وتعكس بشكل كبير التجربة الشرقية/ الهندية التي عاشتها هذه الكاتبة الصاعدة. لا يتعلق الأمر بمذكرات سياحية أو يوميات صحفية، بل بنصٍ مُركّب يطرح اشكالية العلاقة بين الغرب (ألمانيا) والشرق (الهند). وقد لقيت هذه الرواية، الصادرة عام 2003، قبولا واسعاً في الأوساط الأدبية والنقدية الألمانية حازت لينتسَهْ بموجبه على عدة جوائز. كما تمّ في الشهور الأخيرة (2005) نقل «أخت وأخ» الى العربية بمجهود متواضع من المترجم السوري محمد جديد (دمشق، دار كنعان). وهي النسخة التي سنتبناها عند الاحالة.

تروي «أخت وأخ» قصة شابٍ ألماني اسمه لوكاسْ سافر الى الهند في زيارة سياحيّة. وسوف يتعرف هناك على راهب هندوسي سيؤثر عليه كثيراً حتى يتخلخلَ كيانه. ولدى رجوعه الى ألمانيا والتحاقه بأسرته (المكوّنة من أب وأمّ وأخت)، بعد عام من الغياب، يحكي لأخته مارْطا عن هذه التجربة «الروحية» التي عاشها في الهند، ولكن الأخت ستتعامل معها بلامبالاة كبيرة... الى أن يسقط الشاب مريضاً ويفقد بصره جرّاء ذلك. يبدأ الألم مع المرض فتجد الأخت نفسها مضطرة لرعاية أخيها الذي لا يرى الفرج الا في الرجوع الى الهند، «الى غُوا، الى هناك، حيث بدأ كل شيء» (ص. 171) ومعاودة الاتصال بالراهب الهندوسي، خصوصاً بعدما استنتج الطبيب النفساني أن مرضه نفسي ناتج عن عُصاب الانتقال من بيئة (غربية/ مادية) الى أخرى (شرقية/ روحية). ألمُ الأخ ومعاناة الأخت لا يتآخيان، بل يتقابلان ويتصارعان، في ازدواجية شخصانية تشخص ازدواجية المرء أمام ثقافة مغايرة للثقافة التي ترعرع فيها، لأن المنطلق ليس مشتركاً. الأخ يؤمن بأن الهند ستنهي ألمَه والأخت ترى في الهند ألمَها الخاص، لأنها، عكس أخيها، لا تؤمن بتلك الروحانيات. انها رحلة شاقة وحافلة بالمخاطر العملية (متاعب السفر وأخطاره) والروحية لأنها لا تحمل أي ضمانات لاعادة السعادة الى الأخ...

أما من الناحية التحليلية، فتستوقفنا بالدرجة الأولى خطة لينتسَهْ لنقل الصدام/ الحوار الثقافي الذي يختلج داخل الانسان عند التقاء ثقافته بثقافة مغايرة بشكل كبير. ومن خلال الأخت والأخ يُطرح هذا اللقاء/ الالتقاء الحضاري وتنْطرح حوارية متواصلة تتعمق مع تقدم الرواية ولا تنقطع، فيكتشف القارئ من ورائها عالمين مختلفين، بل متباينيْن جلّ الوقت، لا يتقاطعان رغم العلاقة العضوية (الدموية) بين الأخت وأخيها. هذه الرحلة تجسد في الواقع العلاقة بين الشرق والغرب (بالمفهوم الحضاري والايديولوجي)، بين عالم متخلف أو متنام مادياً وشبه فوضوي (بالمعايير الغربية) في تعامُله مع الزمن والوقائع، ينساب بعاطفة جياشة وراء المعتقدات المجردة (خرافات، أساطير، أصنام، الخ) التي لا تمت الى العقل بصلة، وعالم متقدم ومتطور مادياً ومنضبط منهجياً، لا يؤمن سوى بالمحسوسات ولا يستسيغ الا ما هو عقلاني وقابل للتجريب، لأن المرء في الغرب «يطلع على كل شيء من الكتب» (ص. 129).

في الواقع، رحلة الألمانيين مارطا وأخيها لوكاسْ هي ذريعة أدبية توظفها لينتسَهْ لخلق حوار مشوّق وعميق بين وجهات نظر مختلفة في تقابل طبيعي وغير منتظم بين قناعات مختلفة ونظرات متباينة الى الكون. الاختلاف حول الغرب والشرق، انطلاقاً من الشرق أو الغرب، قد يحدث بين الشرق والغرب، أو حتى داخل الشرق أو الغرب. ويتجلى ذلك تخصيصاً بعدما ينضم الى الثنائي الألماني الهندي فيغو ويصير الحوار ثلاثياً يتعمق مع توالي الصفحات وتقدم رحلة عودة لوكاس الى عالم بهره ورحلة اكتشاف مارطا لعالم جاءتْ اليه بأحكام قبْليّة. في هذا المنظار، يمكن اعتبار «أخت وأخ» بمثابة دعوة مفتوحة للقارئ لتأمل العلائق الكائنة بين الجسد والروح، بين المادي والروحاني، بين المرئي والماورائي، بين المُسلّمات والخرافات، بين الايمان والالحاد، بين ثقافة الكتب وثقافة العامة، وما اليها من علائق بارزة أضحت اليوم تستأثر بالخطاب في حقل السياسة والدراسات الأنثروبولوجية والثقافية. الاستشراق والحوار بين الحضارات والأديان موضوعان مطروحان بالحاح في الرواية، ولكن بأسلوب سردي بديع يتبنى التلميح والسخرية والتساؤل فلا يسقط في الانشائية والتصريح بأيّ شكل من الأشكال.

«أخت وأخ» رواية لا تخفي كونها بكراً، تعكس قلق المبتدئ في عالم الابداع. الا أن نضج الأفكار وقوتها لا شك أنها قد عوضت عن أي قصور ورد في الرواية من الناحية الأدبية أو الكتابة السردية بمعناها الواسع. انها رواية تؤسس لخطاب ثقافي يشيد بالانفتاح على الآخر وبالاختلاف بدل التطابق. فعلى المرء أن يرحل، أن يسافر نحو الآخر قبل أن يحكم عليه بما له من معرفة ضيقة انطلاقاً من نقطة قارة. ولكن لن يفوتنا أن نشير الى أن «أخت وأخ» ليست انشاءً جدالياً تسطيحياً يعرّض القارئ للملل أو الاجهاد، بل رواية مكتوبة بتلقائية وشاعرية كبيرتين، في أسلوب سريع الوتيرة ينتبه للأصوات والمشاهد والمجازات عند النقل أو التصوير أو التبنّي، لتحكي قصة انسانية مُمتعة في فضاء حواري يمتزج فيه الغريب والعجيب بالألم والحزن، والحزن والمعاناة بالسخرية والضحك، والضحك والمألوف بالقلق والمجهول، لدى الناظر والمنظور اليه معاً. ولو اضطررنا في ختام عرضنا للاختزال لقلنا ان «أخت وأخ» عبارة عن رحلة شاقة ومشوّقة من الغرب الى الشرق في الظاهر، ومن الايمان الى الايمان في الباطن.

* كاتب من المغرب

# بدرية البشر: العساكر كثيرون ومعظمهم من المدنيين

بيروت ـ من جورج جحا:

من يقرأ رواية الكاتبة السعودية بدرية البشر «هند والعسكر» ويتوهم انها اعطتها هذا الاسم لمجرد ان بطلتها تزوجت من عسكري استبد بها قبل ان يطلقها يكون –كما يبدو– قد توصل الى قسم من الحقيقة لا كلها. فعالم رواية بدرية البشر الروائية والقاصة والكاتبة حافل بانواع من العسكر.. وصفوف هؤلاء العساكر الذين يتسلطون على المرأة تضم انواعا مختلفة من الناس الذين نادرا ما يتساوون في شيء او تجمعهم سلطة يتمتعون بها جميعا سوى قدرتهم على الهيمنة على المرأة والتحكم بها. ففي هذه الرواية التي تتناول الحياة الاجتماعية في المجتمع السعودي – ومدينة الرياض في شكل خاص– نجد في الحالات الغالبة ان للاب وللزوج وللاخ حتى من هم اصغر سنا من شقيقاتهم.. وللاخوال والاعمام وابنائهم وسائر الانسباء القريبين.. سلطة تتجاوز احيانا كثيرة حدود العقلية المحافظة المتشمة لتصل الى القمع والعنف اللذين يعتبرهما قسم من المجتمع فضيلتين. واذا كان ظلم ذوي القربى «اشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند» كما قال الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد فان هناك بين ظلم ذوي القربى ما لا يساويه اي ظلم اخر وهو ظلم المرأة للمرأة.. خاصة اذا كانت المرأة الظالمة اما.

وصورة الام تقع ضمن وصف «الرؤوم» و«الحنون» لكن يبدو ان سلسلة من المظالم التاريخية المتعاقبة تجعل المرأة بل الام احيانا قاسية بينما يبدو الاب احيانا كما في الرواية اكثر تسامحا منها. صدرت رواية بدرية البشر عن دار الاداب في بيروت وجاءت في 208 صفحات متوسطة القطع وبتصميم فني للغلاف قامت به نجاح طاهر. الرواية تبدأ بداية فنية مميزة لكنها على اهمية ما طرحته لم تحافظ من الناحية الفنية على مستوى انطلاقتها اذ سرعان ما يتحول قسم كبير من مادة الرواية الى تراكم لا يضيف كثيرا اليها بل يعيد ما سبق وان بصور مختلفة. لكن شغفت بهذا قدرة الكاتبة على السرد والوصف. في البداية تبرز قدرة الكاتبة على الوصف التصويري بشكل فيه من العمل «الفسيفسائي» تلك القدرة على «التجاور» ليشكل مجموع التفاصيل صورة عامة كبيرة. لكن هذا عندها هو من النوع الذي يتميز عن الفسيفساء التي تتجاور عوالمها التوأمية الصغيرة المتشابهة دون ان تتداخل.. في ان الصور التفصيلية عندها تتداخل وتتفاعل وتشكل صورة عامة مؤلفة من صور عديدة لعوالم صغيرة يتألف منها «العالم» الكبير. تبدأ الكاتبة فترسم احداث رواياتها بصور حية اختارتها عين فنية لاقطة وبتمكن من «تركيب» مسرح الحياة في الرواية من عناصر مختلفة بينها البصر والسمع والشم احيانا. نقرأ فنشاهد بمتعة فنية عالما حالما تلتقطه بل تعيد خلقه بمهارة «فتحت طرف الستارة لاطل على الشارع المقابل لنافذتي. التقطت اذني صوت الاطفال يتعلقون بأيديهم بابائهم وهم يخرجون للمدرسة.. مر باص مدرسة البنات الاصفر سريعا يحمل معه فتيات مجللات بعباءات سوداء ثم حافلة اطفال اخرى يشاغب اطفالها سائق الحافلة بالصياح.

كان الشارع يحتفي بندى المطر وأسفلته يلاعب رشه الناعم الخفيف ويستحم بعيدا عن لفح الشمس الساخنة في اول ايام الشتاء... حين يهطل المطر في نواحي نجد العطشى يحتفل الناس به تعتريهم حالة من جنون الفرح فعادة المطر النجدي يكون رفيقا خفيفا وشحيحا». وتنتقل من هنا الى مكان محدد.. الى «البيت». البيت الذي تصوره بدرية هو نموذج يفيض علاقات بشرية مختلفة متنوعة جاءت نتيجة نسيج اجتماعي تضافرت عوامل تاريخية وجغرافية على تحققه في شكله الذي عرف به. ان هناك دفئا واضحا يسري في احداثه. انه دفء تشيعه رائحة القهوة والهيل و«الطقوس» التابعة لذلك. هناك ارتباط بين القهوة والرواية كارتباط المقهى القديم و«الحكواتي». تقول «معظم حكايات هذا البيت نسجت في جلسات قهوة.. يتخلص شاربوها من قيود الوعي الصارم. بعد الفنجان الثالث ينهمر سرد الحكاية مرة تلو مرة ولكنها ليست الحكاية ذاتها. لا تحب الحكاية ان تعيد نفسها ابدا... تاريخ نساء هذا البيت ولد من حكاية ولدت في فناجين القهوة. كل منهن لها حكاية في قلب فنجان. ان لم يجلبها الغيب معه صنعن هن الحكاية... فتطيب لهن الحكاية مع القهوة المرة..».

من شخصيات عالم البيت العديدة عموشة ابنة نوير الامة التي اختطفت قديما من ساحل عمان وبيعت مع عبيد اخرين. صار لها عائلة واولاد منهن جوهر وعموشة وسائر افراد السلالة الذين ولدوا في العبودية الى ان ازيل الرق في المملكة. تقول الكاتبة «ادركت عموشة ان تاريخا جديدا يختلف عن تارخ امها قد جاء عندما اقر الملك فيصل تحرير العبيد في الخمسينات من القرن العشرين». والواقع ان الكاتبة ارتكبت خطأ هنا لان قرار الملك فيصل جاء في الستينات /سنة 1964/. بعد الغاء الرق يجد القارىء نفسه امام حالتين.. بسيطة تذكرنا بموضوع العبيد والموالي في التاريخ العربي وبقصص من الجنوب الامريكي مثلا.. وهي مشكلة من يمضي قسما من حياته في العبودية وعندما يحرر يشله الخوف لانه لا يعرف ما يفعله في حياته وكيف يعيش. اما الحالة الاخرى التي نصل اليها عبر موقف من هذا النوع فهي حالة فلسفية تذكرنا بموقف الوجوديين حين يكتشف الانسان انه غدا حرا.. فهو يواجه رهبة اتخاذ خطوته التالية. اذن عندما تبلغوا انهم صاروا احرارا «لم ينتبه جدي لنظرة الهلع في عيني جوهر وهو يقول «اين نذهب يا عمي ونحن لم نعرف غير هذا البيت وغير هذا البستان».

عموشة تعيش معهم كواحدة منهم وصديقة للام. الام مسكينة قسا عليها الزمن كما تقول عموشة. ترد هند «امي امرأة جبارة وليست مسكينة..».

كانت تضرب البنات وتقسو عليهن حتى عندما كبرن وتهددهن بنار جهنم عند اي تصرف مثل الناس العادين لبسا او كلاما. تضيف هند «كان الله في قسوته يتمثل بوجه امي فهو غاضب على الدوام علينا ويتوعدنا بالحريق».

# المحارق ومستقبل اسرائيل والحرب الاهلية في حوار لبناني ألماني

القاهرة ـ من سعد القرش:

يمثل كتاب «الحيوان الباكي» مسرحا تتشابك عليه رؤى وأفكار طرفي نقيض حول قضايا تبدأ بالسياسة وتنتهي بها أيضا من علاقة الغرب واسرائيل بمحارق النازي ونظرة اللبنانيين للحرب الاهلية وصولا الى حالة الاستلاب لدى بعض الادباء العرب. مؤلف الكتاب الماني ميشائيل كليبرج كان حريصا على أن يبدو موضوعيا لكن رؤيته بدت في بعض لحظات عفويته كأنها من ميراث الروح الاستشراقية. وترجم الكتاب الى العربية المترجم المصري المقيم في ألمانيا سمير جريس الذي زار القاهرة في الاونة الاخيرة مشاركا في أنشطة نظمها معهد جوته بمصر بمناسبة اختيار ألمانيا أول ضيف شرف لمعرض القاهرة الدولي للكتاب الذي انتهت دورته الثامنة والثلاثون الجمعة الماضي. والكتاب الذي يقع في 169 صفحة متوسطة القطع حمل عنوانه الفرعي «يوميات الرحلة اللبنانية» وصدر في دمشق عن دار كنعان بالتعاون مع مشروع ليتريكس لدعم ترجمة الادب الالماني ومؤسسة الثقافة الاتحادية ضمن برنامج «ديوان الشرق والغرب» الذي تموله الحكومة الالمانية وينظمه معهد جوته. ويدعم البرنامج فكرة حوار الثقافات من خلال قضاء كاتب عربي بضعة أسابيع في برلين يرافقه كاتب ألماني يرد الزيارة لاحقا. هكذا جاء كليبرج «47 عاما» ليرد زيارة الشاعر اللبناني عباس بيضون «61 عاما» ويرصد بذكاء محاورات بيضون واخرين في مقدمتهم الروائي رشيد الضعيف. في الصفحات الاولى يقول ان موقفه «المبدئي مؤيد لاسرائيل... رغم جهلي بالشرق الاوسط وبالبلاد العربية أو الاسلامية أو ربما بسبب ذلك كان شرطي الوحيد ألا يجمعوني بعربي يرفع شعار.. الموت لليهود».

لكنه امتلك الشجاعة ليعترف أيضا بسطوة الاساطير على أفكاره الشخصية اذ «يمثل العهد القديم منبعا لتاريخنا. ومعه يقفز اللاهوت الميثولوجي قفزة الى أوروبا التي تغدو مسرحا لكل شيء... ربما يستغل الاسرائيليون هذه الاساطير أبشع استغلال حتى يغتصبوا قطعة أرض ليست لهم. ولكن هذه الاساطير تحديدا هي الموجودة لدي المترسخة في أعماق لا تستطيع أي محاجاة عقلية الوصول اليها».

وسجل حديثا دار في مطعم ببرلين بين شخصين قال أولهما ان «الفلسطينيين يلقون العذاب» فرد الاخر «صحيح ولكن هل ينبغي على العرب أيضا أن يعانوا من الهولوكوست الذي تسببنا نحن فيه وذلك باغتصاب أراضيهم رغم أنهم لم يذنبوا في شيء بحق اليهود».

كما سجل تعريف وزير الخارجية الالمانية السابق يوشكا فيشر للهولوكوست أو المحارق التي تعرض لها غجر ويهود على يد النازي بأنها الرابطة التي تجمع الالمان. في مقابلته مع المفكر الفرنسي اليهودي المعروف بمعاداته للعرب برنار هنري ليفي «الذي كان قد سأل الوزير عن الرابطة التي تجمع الالمان معا.. القاسم المشترك للالمان.. الشيء المناظر لعام «الثورة» 1789 بالنسبة الى الفرنسيين. انذاك رد فيشر.. الهولوكوست تمثل ذلك بالنسبة للالمان المعاصرين».

هنا علق الضعيف وهو أستاذ جامعي مرموق «ولكن دولة تقوم على الهولوكوست لا يمكن أن تسير سوى الى غاية واحدة.. أن تختفي».

وحكى له الضعيف عن وجود الجنود الاسرائيليين فوق دبابات كانت تخترق شارع الحمراء «عن الاحتقار الفظيع في نظرتهم التي أرسلوها الى الجنس الادنى من البشر... لم تكن هذه نظرة من انسان الى انسان».

وقال كليبرج ان الضعيف «له نظرية مرعبة فيما يخص اسرائيل. انها دولة لا يمكن أن تستمر على قيد الحياة الا بالحروب وفي حالة حرب... أتعلم ما هي اسرائيل.. جيش و15 عائلة... اذا عم السلام وأصبحت اسرائيل دولة علمانية ديمقراطية بدون نظام فصل عنصري فانها ستختفي من الوجود خلال جيلين».

ويبدي المؤلف الالماني دهشته من القاء جميع من قابلهم اللوم على الاسرائيليين باعتبارهم «المذنبين الرئيسين في الصراع الفلسطيني. هذا أمر ببساطة لا أقبله».

ويوضح له بيضون أن المنطقة العربية في حالة جمود منذ نصف قرن ولا ديمقراطية بدون «حل القضية الفلسطينية. الشعوب العربية كلها رهينة أنظمتها طالما بقيت هذه المشكلة بلا حل».

كما يشير الى تحمل المثقف العربي جانبا من المسؤولية عن ذلك مدللا بلقاء أدبي في اليمن شارك فيه مع كتاب بارزين وفيه أعطى جونتر جراس الالماني الحائز على جائزة نوبل الشاعرين الكبيرين أدونيس ومحمود درويش «درسا في الجرأة والشجاعة الادبية حيث تحدث أمام الرئيس اليمني «على عبد الله صالح» عن كاتب يلاحقه المتدينون وهو ما لم يخطر على بال الشاعرين أبدا رغم علمهما بالقضية ورغم نفوذهما الواسع».

ويصف المؤلف الفنان الفلسطيني ايليا سليمان مخرج فيلم «يد الهية» بأنه فنان هادئ وواثق بنفسه لكن الفلسطيني الاخر الذي أتيح لكليبرج أن يراه عن قرب في مؤتمر بمعهد برلين للدراسات كان محمود درويش «أعتقد أنني لم أر في حياتي عينين في برود عيني درويش. لم أصدق نظري وساءلت نفسي.. أهي عيون متعبة أم ميتة».

ويسأل أصدقاءه الادباء اللبنانيين عن سر شغف العرب بترجمة ما يكتبون «لماذا يعني لكم الغرب كل شيء رغم أنكم تعتبرونه مخترقا من الصهيونية.. لماذا لا تهمكم أي سوق الا السوق الغربية.. لماذا لا تهمكم المنطقة العربية بسكانها الثلاثمئة مليون».

رحلة المؤلف سبقت تطورات مهمة شهدتها الساحة العربية واللبنانية منها الغزو الامريكي للعراق وخروج الجيش السوري من لبنان. وكان الضعيف يستعرض الخريطة السكانية والجغرافية لبلده مشيرا الى أن «لبنان برميل بارود/ في حين رأى بيضون أن الحرب الاهلية هي التي جعلت اللبنانيين يدافعون عن الدولة كقيمة ينبغي حمايتها «السوريون هنا في لبنان يشبهون الروس في تشيكوسلوفاكيا عام 1968 «حين قالوا» جئنا لمصلحة الشعب كله. ولكن هل سأل أحد الشعب.».

ويقدم الكاتب الالماني لوحة مركبة للحرب الاهلية حيث بدت له قصة كل لبناني قابله هي قصة تلك الحرب «قصة الخريطة التي طبعتها نيران الحرب على بشرته وفي لحمه. لم تكن حربا كما عهدنا الحروب أو كما نتخيلها.. بل كانت نوعا من التلذذ والانتشاء بالدماء. نشوة استمرت خمسة عشر عاما. احتياج جماهيري لاشباع أقصى درجات الوحشية. حفلة قتل جماعي زالت فيها كل الكوابح البشرية. حفلة لم يعد يتحكم فيها الوعي وفي الصباح التالي يستيقظ كافة المشاركين وفي الرأس صداع فظيع من السكر وبرعب ينظرون بعيون حمراء الى ما اقترفته أيديهم دون أن يفهموا فعلا.. كيف وصلت الامور الى ما هي عليه.. دون أن يفهموا متى فقدوا رشدهم أثناء الليل ولماذا عاد اليهم الان».

ولا يكتفي المؤلف الرحالة بالرصد بل يستفيد من خبرة السرد كروائي قادم من بلد الفلاسفة حين يقارن بين الواقع والعمل الابداعي حيث «تبقى الحقيقة وهي أن المقرؤ في الروايات يكتسب واقعا أقوى بدرجة لا تقارن من أشياء عديدة يشاهدها الانسان أو يلمسها كما أنه يبقى أكثر اكتمالا. ان الطبيعة الادبية التي يبث فيها الكاتب الروح تنفذ الى الذاكرة على نحو أقوى بدرجة لا تقارن مما نراه أو نلمسه ومما لا يغدو لدينا جزءا من تاريخ الروح». وقال كليبرج ان والده كان قلقا عليه وانه قرأ في نظرات عينيه الصامتة «التفوق الذهني الاوروبي المتحضر. التفوق الاخلاقي للمسيحي الغربي الحديث واستعلاءه على الارهابي الاسلامي المتعصب سفاك الدماء الاتي من العصور الحجرية عصور ثقافة الكراهية والحقد».

هذا عن أبيه أما هو ففي نهاية الكتاب–الرحلة يقول انه لم يشعر بالغربة أو أنه أجنبي لان الارض التي التقوا عليها هي «جمهورية الفكر التي نسكنها جميعا وهي الجمهورية التي نشأت عليها وأعني الجمهورية الغربية سواء تحدثنا عن كرة القدم أو عن «الفيسلوف الالماني مارتن» هايدجر أو عن «الفيسلوف الالماني فردريش» هيجل أو «المخرج السينمائي الايطالي فيديركو» فلليني... كل اللبنانيين الذين تعرفت اليهم لا يعيشون فحسب على أرض ثقافتهم وتاريخهم بل أيضا على أرضنا».

في الصفحة الاولى التي تسبق اهداء المؤلف كتابه الى زوجته وابنته اللتين قاسمتاه الرحلة قال كأنه يبرئ ذمته ان «هذا الكتاب يتضمن ملاحظات شخصية وأفكارا وذكريات واستطرادات قمت بتدوينها أثناء الرحلة. وهو لا يدعي بأي حال تقديم جديد عن لبنان أو منطقة الشرق الاوسط». (رويترز)